

آه يانا يانا من غرامه يانا وإن كنت أحبه ما عليّ ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً، إن كان الناس يفهمون منها شيئاً؛ فهي شائعة ذائعة في المدينة وفيما حولها من القرى، تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة، بل من كل صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه. أما الآن فمالي أتمثل أختي كئيبة حزينة يائسة، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى، وهو ينتشر في الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعةً وأسى، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقتة إحراقاً، ولا تبلغ نفساً إلا فرقتها تفريقاً؟! مالي أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم، وأعلم منها ما لم أكن أعلم، وأحس منها ما لم أكن أحس، وأستكشف فيها من المعاني والمرامي والأغراض ما لم يكن يخطر لي من قبل على بال؟ إن هذه الآهة التي يرسلها الصدى النحيف ممتدةً ضئيلة لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهي، لتثير في نفسي عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لي بها عهد. وإن هذا النداء ليصور نفسي الأنين كما يصور لنفسي الاستغاثة، وكما يصور لنفسي اليأس من البر حين يتكرر. وإن هذا الاعتذار ليصور لنفسي الهيام في غير احتفال بالعاقبة، ولا ندم على ما كان، ولا تقدير لما هو كائن، وإنه ليصور لنفسي جرم هذا الخال الأثيم الذي سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها، ولم يبرئ هذه المحبة الهائمة من اللوم، ولم يُعفها من الإثم، ولم يصرف عنها العقاب؛ لأنه جامد القلب جافي الطبع، خشن النفس غليظ المزاج، لم يذق لذة الحب ولا ألمه، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم، وما يكون فوق الإثم، وما يكون فوق العقاب.

نعم! وإنني لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليأس الحزين، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة لا تتقى وسحراً لا يقاوم، وقد رُق حديثه حتى أصبح شرّاً يصيد القلوب وحبالة تختلس النفوس، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها سبيل. وإنني لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمامي صوراً ثلاثاً: صورة هذا الفتى الجميل الرائع يغري بالإثم ويدفع إليه، وصورة هذا الشيطان الآثم المريد يأخذ بالإثم ويعاقب عليه، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء المضني والعقاب المفني. ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسي أين أنا منها؟